٣٥١٣٦

فصول

مجلة النقد الأدبي

کتابخانه مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی
بنیاد دایرة المعارف اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

اتجاهات النقد العربي الحديث

٣/٤

تصدر كل ثلاثة أشهر

● المجلد التاسع ● العددان الثالث والرابع ● فبراير ١٩٩١

[redacted]

فصول

مجلة النقد الأدبي

تصدر عن : الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة

سمير سرحان

رئيس التحرير

عز الدين إسماعيل

نائب رئيس التحرير

صلاح فضل

مدير التحرير

اعتدال عثمان

المشرف الفني

سعيد المسيري

السكرتارية الفنية

احمد مجاهد

عبد الناصر حسن

محمد غيث

وليد منير

مستشارو التحرير

زكي نجيب محمود

سهير القلماوي

شوقي ضيف

عبد الحميد يونس

عبد القادر القط

مجدي وهبة

مصطفى سويف

نجيب محفوظ

يحيى حقي

● الاسعار في البلاد العربية

الكويت دينار واحد ـ الخليج العربي ٢٠ ريالا قطريا ـ البحرين ٢٠٠٠ فلس ـ العراق دينار وربع ـ لبنان ٢٥٠٠ ليرة ـ الاردن ١٦٠٠ فلس ـ السعودية ٢٠ ريالا ـ السودان ٤٠٠ قرش ـ تونس ٤٠٠٠ مليم ـ الجزائر ٢٤ دينارا ـ المغرب ٦٠ درهماً ـ اليمن ٤٥ ريال ـ ليبيا دينار وربع ـ الامارات ٢٠ درهم ـ سلطنة عمان ٢٠٠٠ بيزة ـ غزة ٢٠٠ سنت ـ

● الاسعار في البلاد الاجنبية :

لندن ٤٠٠ بنس ـ نيويورك ١٥٠٠ سنت .

الاشتراكات :

ـ الاشتراكات من الداخل

عن سنة (اربعة اعداد [redacted]

قرش ترسل الاشتراكات بحوالة بريدية حكومية

الاشتراكات من الخارج

عن سنة (اربعة اعداد) ١٥ دولاراً للافراد ـ ٢٤ دولاراً للهيئات ـ مضاف اليها

مصاريف البريد (البلاد العربية ـ ما يعادل ٥ دولارات) (أمريكا واوروبا ـ ١٥ دولاراً)

ترسل الاشتراكات على العنوان التالي :

● مجلة فصول

الهيئة المصرية العامة للكتاب

شارع كورنيش النيل ـ بولاق ـ القاهرة ج . م . ع .

تليفون المجلة ٧٧٥٠٠٠ ـ ٧٧٥١٠٩ ـ ٧٧٥٢٢٨ ـ ٧٦٥٤٣٦

الإعلانات يتفق عليها مع إدارة المجلة أو مندوبيها المعتمدين

اتجاهات النقد العربي الحديث

● أما قبل .... رئيس التحرير ٤

● هذا العدد .... التحرير ٥

- البلاغة واللغة والميلاد الجديد
« قراءة في تراث العقاد النقدي » .... مصطفى ناصف ١٣

- « أحمد ضيف » المحاولات الباكرة
في النقد الأدبي الحديث .... علي شلش ٣١

- النزعة الجمالية الإنسانية
في نظرية محمد مندور النقدية .... فاروق العمراني ٥٦

- « القراءة التذوقية النقدية من خلال « الفلسفة الوضعية »
عند زكي نجيب محمود .... سامي منير عامر ٦٧

- فاعلية الإبداع وتجربة الناقد الأدبي .... محمد فتوح أحمد ٨١

- الشعراء النقاد : تأملات في التجربة النقدية عند
صلاح عبد الصبور ، أدونيس
كمال أبو ديب .... عبد العزيز المقالح ٩١

- المناهج المهجورة في قراءة التراث الشعري :
البنيوية نموذجا .... محمد الناصر العجيمي ١٠٩

- البنيوية التكوينية في
الدراسات الأدبية في المغرب .... محمد خرماش ١٢١

- الاتجاه النفسي في
دراسة الأدب ونقده .... عصام بهي ١٣٣

- اللسانيات العربية وقراءة النص الأدبي - قول في « نقد الذات
ومكاشفة الآخر » .... سعد مصلوح ١٤٩

- شهادات النقاد ١٥٣

● الواقع الأدبي

● تجربة نقدية

- خصائص الخطاب السردي لدى نجيب محفوظ -
دراسة في « زقاق المدق » .... عبد الملك مرتاض ٢٠٧

● متابعات

- « أشجار الأسمنت »
محو الإيقاع ، وإيقاع المحو .... وليد منير ٢٢١

● عرض كتاب

- قراءة « مفهوم النص »
لنصر حامد أبو زيد .... حسن حنفي ٢٢٧

● مع المجلات العربية .... عرض : عبد الناصر حسن ٢٣٨

● رسائل جامعية

- جدلية اللغة والحدث في الدراما .... عرض : وليد منير ٢٤٤

- دور يحيى الطاهر عبد الله في القصة القصيرة
المصرية (١٩٦٥ - ١٩٨١) .... عرض : حسين حمودة ٢٤٧

- مجلة « الثقافة » (١٩٣٩ - ١٩٥٢)
دراسة تاريخية وفنية .... عرض : عزة بدر ٢٥٠

● وثائق

- نصوص من النقد العربي الحديث (الأدب العربي المقارن -
العنوان الأول والنص الأول) .... توثيق وتعليق : حسام الخطيب ٢٥٧

- (الطبعة الأولى من كتاب « شعر حافظ »
لإبراهيم عبد القادر المازني) .... تقديم : مدحت الجيار ٢٧٩

- نصوص من النقد الغربي الحديث
(جدوى الشعر وجدوى النقد ١٩٣٣) .... تأليف : ت . س . إليوت
ترجمة : ماهر شفيق فريد ٣٠٩

(الأسلوبية الوصفية أو أسلوبية التعبير) .... تأليف : بيير جيرو
ترجمة : منذر عياشي ٣٢٢

● كشاف المجلد التاسع .... التحرير ٣٢٩

● This Issue .... ترجمة : ماهر شفيق فريد 3

اللسانيات العربية وقراءة النص الأدبي

قول في « نقد الذات » و « مكاشفة الآخر »

سعد مصلوح

١ ـ فاتحة .

أتى على النص الأدبي في العربية المعاصرة زمان نوقشت فيه أخطر قضاياه مناقشة انبتَّتْ فيها الصلة أو كادت بالمنظور اللساني ؛ بل إن الجمهرة الغالبة من الدارسين لم تكد تحس وجوداً لضرورة منهجية ملجئة إلى مثل هذا النوع من النظر وربما كان موضع العجب في ذلكم أن كثيرا من مشكلات النص الأدبي التي كانت مناط خلاف بين النقاد هي ذات جوهر لغوي ؛ على نحو لا يتصور معه إمكان فحصها على غير أساس من رؤية لسانية مستنيرة ومنضبطة . ولست أدري كيف استطاع أهل النقد أن يخوضوا معاركهم حول الأشكال الشعرية الجديدة ، ووظيفة الفن ، ولغة العمل الأدبي ، في غيبة التأسيس اللساني لهذه المشكلات ، مع أن مثل هذا التأسيس هو شرط ماهية لسلامة الأحكام وصحة النظر .

بيد أن غياب المنظور اللساني في كل ما سلف يقابله الآن ما يشبه أن يكون إفاقة من سبات منهجي عميق ، يحاول فيه كثير من النقاد تعويض ما فرطوا في جنب اللسانيات ؛ إذ استبان كثير منهم أنهم كادوا أن يهدروا كينونة النص وجوهر الأدبية فيه ، وجعلوا منه خادماً وتابعا لكل علم ، ولم يُسلِّموا بأهليته في أن يكون موضعا للنظر العلمي لذاته ؛ بل إنهم لم يقدروا الأمور حق قدرها حين مدوا أبصارهم إلى مجالات معرفية قصية ، هي على أهميتها لاتغني عنهم من العلم شيئا إن تجاوزوا عطاء اللسانيات الحديثة ومنجزاتها في دراسة النص الأدبي ؛ فهي على كل حال أمس به رَحِماً وأعظم له جدوى .

ونحن معنيون في هذه الدراسة بأمور : أولها رصد أسباب القطيعة غير المقصودة بيقين بين أهل النظر من النقاد واللسانيين العرب ، وحظ كلا الحزبين من المسئولية عن ترسيخ هذه القطيعة . وثانيها : تحديد مظاهر التقارب بين الفريقين ، والكشف عن مواطن الخلل فيما أنتجه ذلك من نقد لساني ، أو نقد يسترشد في ممارسته بالتحليل اللساني ويتكىء على تصوراته ومقولاته . وثالثها : استشراف مستقبل هذه الحركة ، وتحديد الكيفيات التي تعالج بها مواطن الخلل ، وتنشط بها من عقالها لتحقق غاياتها العلمية في خدمة الإبداع الأدبي في العربية . وتنتظم هذه الغايات الثلاث في بابين من القول ؛ ينصرف الأول إلى « نقد الذات » ؛ أي معالجة المسألة في جانب « اللسانيات » ، وهي المجال الذي نشرف بالاشتغال به والانتهاء إليه ؛ والثاني إلى « مكاشفة الآخر » ؛ ونعني به فريق النقاد الذي يجمعنا وإياه النص الأدبي ؛ بما هو هَمٌّ مشترك لكلينا ، وإن اختلفت بيننا الغايات والوسائل .

ونحسب أن الأمور باتت في حاجة إلى هذا « النقد » وإلى تلك « المكاشفة » ، بعد أن بلغت بنا مبلغا لا يحسن السكوت عليه . ولئن اتسم القول هنا بشيء لا مفر منه من الحدة والصراحة ، إننا على يقين ـ إن شاء الله ـ من صدق الباعث عليه ، وشرف المقصود به . ومن ثم فنحن نرجو ألا يقع هذا القول من أي من الفريقين موقعا لا نرضاه ؛ فالخير أردنا ، وعلى الله قصد السبيل .

٢ ــ القول فى « نقد الذات » .

إذا كانت جميع العلوم الإنسانية فى أوربا قد انتجعت فى نهاية الأمر حقل اللسانيات ، وأقرت لها بفضل السبق إلى دخول فردوس العلوم المنضبطة ، واستعانت تصوراتها ومناهجها وطرق البحث فيها لتدقيق معالجتها لما تتصدى لدراسته من ظواهر ـ فإن أمر القول فى العلاقة بين اللسانيات والنقد الأدبى فى العربية يختلف اختلافا ظاهرا عنه فى غيرها من اللغات . ذلك بأن تشكل اللسانيات الحديثة ونموها فى أوربا كان نتاج تطور طبيعى فى سياق ثقافى نشط وحافل بالحوار العلمى والجدل الفكرى المنتج بين العلوم . وصحيح أن اللسانيات الأوربية قد أعرضت ونأت بجانبها ـ غالبا ـ عن دراسة النص الأدبى فى أوليات النشأة ؛ لكنها ما إن فرغت من هموم النشأة والتأسيس وترسيخ استقلالها حتى استجابت لتطلعات العلوم الإنسانية الأخرى ، واتجهت بكليتها للإسهام فى معالجة المشكلات التى هى موضع النظر المشترك بينها وبين تلك العلوم ، وعلى رأسها مشكلات النص الأدبى . ومن ثم فإن الفجوة التى فصلت بين اللسانيات البنيوية الوصفية والنقد الأدبى أول الأمر لم يقدر لها أن تدوم طويلا ؛ كما أن عقد الصلة بين هذين المجالين من مجالات المعرفة قد تم فى تطور طبيعى كان من الممكن التنبؤ به سلفا . أما عندنا نحن ـ أهل العربية نقادا ولسانيين ـ فقد كنا دائما تجاه التأثير الأوربى فى موقع المنفعل والمستهلك وليس الفاعل المنتج . وقد سبق تأثرُ النقاد بالتيارات والمذاهب الأدبية فى أوربا قيامَ اللسانيات الحديثة فى بلاد العرب بزمن طويل ؛ ثم إن هذا التأثير النقدى اتخذ سبيله فى مجرى الثقافة العربية بمعزل عن اللسانيات وهمومها العلمية الضيقة إبان النشأة ، حتى إننا لا نكاد نتسمّع لهذه العلاقة إلا أصداء خافتة تتردد فى كتابات بعض النقاد من جيل الرواد .

أما اللسانيات الحديثة ، فعند اتصلت أسباب الباحثين العرب بها بعد الحرب العالمية الثانية ـ دخل اللسانيون فى حال دفاع عن ذواتهم ، وعما حصّلوا من معارف جديدة . وكان همهم أن يفسحوا لهذا الجديد مكانا فى سياق ثقافى غير مُوات ، يشعر فيه القائمون على أمر علوم العربية ، من أفراد أو مؤسسات ، باكتفاء ذاتى لا يحتاجون معه إلى مزيد أو جديد ، ويرون فى كل ما يروجه اللسانيون المحدثون ضرباً من البدع المحدثات . حينئذ كان من البدهى أن ينصرف نشاطهم البحثى إلى غايتين هما : الجدال مع التراث اللغوى العربى ومن ينصبون أنفسهم حفظة له وحراسا عليه ، ثم تقديم اللسانيات ، أو ما يطلق عليه « علم اللغة » ، إلى جمهرة الباحثين والمتخصصين فى علوم العربية تعريفاً بها ، وإقناعا بجدواها وبما يناط بها من آمال . ومن البداهة أيضا أن الغايتين كلتيهما قد ارتبطتا معا بأوثق رباط ، واعتضدتا برافد آخر من روافد النشاط اللسانى تمثل فى قيام نفر من جيل الرواد اللسانيين ومن جاء بعدهم بترجمة بعض الأعمال اللسانية الأوربية أو تعريبها . ولن نعرض الآن بتفصيل القول فى تقويم أثر هذه الترجمات أو المعربات ، فقد وقع أكثرها ـ على أهميته ودوره المقدور ـ دون المراد من حيث عدده وقيمته وتنوعه وقدرته على البيان . ومن نافلة القول أن نقرر أن اللوم فى ذلك لا ينصرف إلى المشتغلين بعلوم اللسان وحدهم ، بل ربما ينصرف بمقياس الأولى إلى منظومة التصورات والسياسات الثقافية والعلمية التى تحكم نظرة المؤسسات الرسمية والأكاديمية إلى الترجمة ودورها فى التحديث العلمى . ومن عجب أن يفطن أسلافنا إلى خطر هذا الأمر منذ عشرات القرون ، وأن يأخذ النصيب الأوفى من السياسة التعليمية لدى محمد على قبل قرابة قرنين من الزمان ، ثم تكون هذه هى نظرتنا إلى القضية وقد انصرم القرن العشرون أو كاد . وعلى أى حال فإن تقويم الترجمات اللسانية يحتاج إلى كلام شديد التحصيل والتفصيل ، ولعلنا نعود إليه فى مقام آخر .

لذلك يمكن أن نرصد ـ من موقع « نقد الذات » ـ كثيرا من مظاهر القصور فى حركة البحث اللسانى العربى ، ترتد أسبابها إلى ما يصاحب الجديد الوافد فى العادة من تهيب له أو انبهار به ، ومن عجز عن ملاحقته فى تطوراته السريعة المترادفة ، وتعصب مدرسى ملازم لتعدد الانتماءات واختلاف المذاهب ، وتهافت غير القادرين من ذوى المواهب المحدودة على الانتساب إليه ، ومقاومة البيئات العلمية المحافظة له ، وشك المشتغلين به فى قدرتهم على تغيير التصورات الراسخة ذات الهيمنة والسلطان الذى لا يتحلحل على البنى الفكرية والعقدية عند المحافظين . ويزيد الأمر صعوبة وعسرا بالنسبة للثقافة العربية ما تشكله المسلمات الكابحة للعقل الناقد بصفة عامة ، وما يتصل بعمل هذا الحقل فى المجال اللغوى بصفة خاصة .

من هنا لم يكن عجبا أن تستغرق اللسانياتِ العربيةَ همومُها وأشغالها العلمية التى حدت من فاعليتها فى تشكيل ثقافتنا المعاصرة . وقد أنتج هذا كله عددا من مظاهر الخلل فى التأليف اللسانى . وكاتب هذه الدراسة حين يرصد أبرز هذه المظاهر يرى لزاما عليه أن يستيقظ الأنظار إلى أمور : منها أنه هو نفسه واحد ممن يشرفون بالانتماء إلى حزب المشتغلين باللسانيات التى هى عنده أخطر العلوم الإنسانية مطلقا ، والقيمُة على دراسة اللغة التى هى مجل عمل العقل ووعاء معارفه ؛ ومنها : أن هذا الانتماء يبرئه من القصد إلى غمط هذا العلم والمشتغلين به حقهم ودورهم فى الثقافة العربية المعاصرة ، وأن من هؤلاء أساتذته الذين علموه وفيهم رفاقه وتلامذته من ذوى الفضل الذى لا يجحد ؛ ومنها أنه هو نفسه أيضا لا يبرىء عمله وناتجه من مظهر أو آخر من مظاهر القصور والخلل التى يعددها ؛ ولا يزعم الكمال لنفسه إلا من افتقده . لهذا كان هذا الرصد نوعا من الحوار مع النفس وبين أهل البيت الواحد ، سعيا لكمال منشود بصدق النية وإخلاص العمل .

ونأخذ الآن فى ذكر ما نعده مظاهر للخلل فى المكتبة اللسانية العربية فنقول :

المظهر الأول : هو اشتمال هذه المكتبة على كَمٍّ هائل من « المقدمات » أو « المداخل » إلى علم اللغة أو اللسانيات (أو الألسنية أحيانا) لا يكاد يمتاز بعضها من بعض من حيث الغاية التي تنتصب لتحقيقها وتكييف بنية « المدخل » أو « المقدمة » على نحو تتحقق به الغاية . ومن ثم فقد جاء المحتوى العلمي فيها ملكا مشاعا بين كاتبيها ، وانتفت مظاهر التفرد والخصوصية . وليس أكثرها إلا استجابة آنية لمتطلبات المقررات الدراسية في الجامعة ، وتلبية آنية لحاجات الطلاب ، مع ما يفرضه ذلك بالضرورة من تنازلات وتضحية بأشراط الجدية والصرامة العلمية الواجبة .

وصحيح أن حركة التأليف في « المقدمات » و « المداخل » اللسانية لم تتوقف إلى يوم الناس هذا ولن تتوقف ، ولكن الأمر فيها يختلف عما هو الحال عندنا بملاحقتها الدائبة لتطور العلم ، وتنوع الغايات المبتغاة من التأليف ، والصياغة الخصبة والمنتجة لحقائق العلم ، وتنوع الانتماءات المذهبية والمدارس اللسانية . وأين نحن من هذا كله فيما كتبنا ونكتب من مداخل أو مقدمات ؟

الثاني : عجز اللسانيات العربية ـ لا سيما في العقود الثلاثة الأولى من نشأتها ـ عن أن تعكس خريطة شاملة للمدارس والاتجاهات اللسانية الحديثة في أوربا . وقد كان هذا وفاء من روادها الأوائل لا لتزامهم المدرسي . غير أن هذه الخريطة كانت ـ وما تزال ـ معقدة إلى حد كبير . وأنت إذا قرأت كتب رائد اللسانيات العربية الأول أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس رحمه الله وجدت عبارات يخطئها الحصر من مثل قوله : « ويرى علم اللغة الحديث كذا » ، أو « في رأي علماء اللغة المحدثين كذا » . ومن هنا استقر في روع جيل الخالفين من أمثالي أن « علم اللغة الحديث » علم واحد ، وأنه منظومة متجانسة من المقولات والتصورات يكاد يضيق الخلاف حول أسسها المنهجية ، أو ينتفي ، وأن المنتمين إلى هذا العلم إنما يصدرون عن رأي واحد في المشكل الواحد . وهكذا انطلق كثير من أبناء جيلي وممن جاء بعدنا ليرصعوا أغلفة كتبهم سائلهم بعنوانات من مثل : « كذا في ضوء علم اللغة الحديث » ، حتى إذا فتشت في أكثرها لم تجد إلا طائفة من المقولات التي تلقاها أصحابها بالقبول ، ورأوا فيها مسلمات ومصادرات علمية لا تقبل الجدل ، لانتمائها إلى ما يسمى بعلم اللغة الحديث ، على حين أن أكثرها هو من الخلافيات بين أهل العلم من أتباع الاتجاهات والمذاهب المختلفة .

وهكذا كانت كتب الرواد التي وصلتنا ببعض المدارس اللسانية في الغرب حجابا ـ في الوقت نفسه ـ بين من جاء بعدهم وسائر المدارس اللسانية الأخرى ؛ وما كان ذلك عن خطأ من أساتذتنا ، ولكنه قعود الهمة والاستكانة العلمية من الخالفين .

الثالث : أن اللسانيات العربية لم تتصد للمشروعات القومية الكبرى ، ولم يستطع المشتغلون بها أن يقنعوا المؤسسات العلمية والثقافية المعنية بجدوى إنجاز الأطلس القومي للهجات ، أو كتابة تاريخ اللغة العربية (أو المعجم التاريخي لها ، وذلك أضعف الإيمان) ، أو إصدار ترجمات معتمدة يتولاها شيوخ هذا العلم لأمهات المراجع والمصادر اللسانية الحديثة . وكان حريا بالتأليف اللساني ـ لو انتحى هذا المنحى ـ أن يغير كثيرا من مظاهر الاضطراب والخلل ، لا في مجال اللسانيات فحسب ، بل في علوم كثيرة أخرى ، كعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلم الثقافات ، ودراسات الأدب الشعبي .

الرابع : أن الترجمات التي صدرت لأعمال لسانية غربية حكمها في كثير من الأحيان طابع الاصطفاء ، أو المصادفة ، أو إيثار السهولة ؛ كما أن كثيرا منها يكابد مشقة السيطرة على الفكرة في أصولها ، وإحكام العبارة عنها في صياغتها العربية. وحسبك أن كتاب « سوسير » لم يعرف الطريق إلى العربية إلا بآخرة من الزمان ، وأنه حين أذن الله بذلك دخل العربية في ترجمات ثلاث دفعة واحدة ، تفاوتت فيما بينها تفاوتا ظاهرا . واكتفى القادرون منا بالرجوع إلى أصله الفرنسي ، أو إلى ترجمته في الإنجليزية . وكان حريا بنا أن يكون أول ما ينبغي نقله إلى العربية ، وأن يتصدى لذلك شيخ من أولي العزم والراسخين في العلم .

الخامس : أن كثيرا من التصانيف اللسانية هي ترجمة أشبه بتأليف، أو تأليف أشبه بترجمة . وفي مثل هذه الأعمال إثم كبير ومنافع للناس ، بيد أن إثمها ـ فيما نرى ـ أكبر من نفعها ، لما تنطوي عليه في الغالب من تعمية على الأصول ، وتشويه لها ، ومن عقد الصلة بين الأفكار لأدنى ملابسة ، واستفزاز لها من سياقها العلمي والثقافي على نحو يجعلها غير منتجة أو فاعلة ، ومن تلفيق ظاهر في أكثر الأحيان بين معطيات العلم الوافد والعلم الموروث .

ذلكم هو حاصل القول في « نقد الذات » ؛ فماذا عن الشق الثاني من القضية ؟

٣ ـ القول في « مكاشفة الآخر » .

أما وقد قضى الله في أمر اللسانيات العربية بما هو كائن ، فلم يكن بدعا من الأمر أن يتجرد للإفادة من علوم اللسان طائفة من المشتغلين بدراسة النص الأدبي من أهل النقد . وقد رأى هؤلاء ما أحدثته اللسانيات من ثورة شاملة في الدرس الأدبي الأوربي بخاصة، وفي العلوم الإنسانية بعامة ، وعاينوا ما أنتجته من آثار علمية لا يشبهها إلا نتائج الانقلاب الصناعي في تاريخ أوربا الاقتصادي . بيد أنهم تطلعوا إلى اللسانيات العربية وعطائها المرتقب في دراسة النص الأدبي فلم يظفروا منها بطائل ، ولم يسعدهم أهلها على تحقيق غايتهم ، والجواب عما

بحيك فى صدورهم من مسائل ، فكان أن هبط كثير منهم بالمظلات على ميدان اللسانيات ، فجاسوا خلال الديار فوجدوها خلاء أو ما يشبه الخلاء ؛ ومن ثم أصبح جميعهم لسانيين بالهواية أو الحق الإلهى فى ساعة من نهار ، وصنفوا فى مسائلها أنحاء من التصنيف ، استشرت فيها عدوى التأليف بما يشبه الترجمة ، والترجمة بما يشبه التأليف .

والغريب ، وما عاد شىء فى هذا الزمان بمستغرب ، أن تقوم كتب ورسائل برمتها على مفاهيم لسانية مغلوطة ، يفتقد أصحابها أوليات المعرفة بطرق التحليل اللغوى ووسائله ، ثم يكون لها من ذيوع الذكر وبعد الصيت ما يكون ، ويتلقاها بالإطراء قوم يظهرون العلم بعظائم الأمور وهم عن صغارها غافلون ؛ بل إن من الرسائل العلمية ما يقوم على إعمال طرق تحليلية عاجزة أو مناقضة لما ينتصبون لتحقيقه من غايات علمية ؛ ومن ثم تراهم يكتبون تحت أخطر العنوانات أهون القول .

لقد اتخذت ألقاب الأسلوبية والبنيوية وما جرى مجراهما سردابا خلفيا لاقتحام معقل أخلاء أهله فكان بالنسبة لمقتحميه كأرض التيه ؛ ذلك بأن فحص النص الأدبى بالطرق الأسلوبية التقليدية ، أو بوسائل الأسلوبيات الموسعة ، أو بالاسترشاد بمقولات اللسانيات واستمداد نماذجها ، إنما يتطلب تمكنا من أدوات التحليل اللسانى على مستوياته الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية ، يتأبى على أهل العجلة والتسرع . وإن لأعلم علماً ليس بالظن أن العلم لا يمتنع على من أخلص فى طلبه ، وأن اللسانيات ليست كهنوتا وطلاسم تتأبى إلا على من يملك كلمة السر . بيد أن هذا العلم العزيز الجانب لا ينيل نفسه لمن أراغ بُعد الصيت وحسن الأحدوثة بأقل الجهد وأيسر المئونة . وليس هذا منا قولا مرسلا بلا دليل ؛ فإن عندنا من الشواهد ما يضيق عن سرده هذا المقام ، ولقد عرَّفنا فى مقام آخر ببعضها وأعرضنا عن كثير .

وإذا كانت لنا من كلمة خالصة لله والعلم فإننا نتوجه مرة أخرى إلى زملائنا من المشتغلين باللسانيات العربية ؛ فبصلاح أمرهم يصلح إن شاءالله خلق كثير . لقد قام جيل الرواد من اللسانيين بمهمة تاريخية كبرى ، ولكنه ، ومن أسف فى كثير من الأحيان،لم يستطع أن يصنع على عينه جيلا من الباحثين صلاب الأعواد ، الحراص على الدرس والتحصيل والتجويد ؛ فخلف من بعدهم خلف لم يقوموا بعلمهم ، وكثير منهم ـ إلا من عصم الله ـ أضاع الموروث وقصر فى تحصيل الوافد ، فأخرجت الجامعات العربية كثرة كاثرة من الرسائل الجامعية ، تقصر عن تحقيق ما هو معلوم من شروط البحث العلمى بالضرورة . ومع ذلك تخرج هذه الرسائل وقد ذيلت بقائمة طويلة من المراجع الأجنبية ، ينوء القليل منها بأفهام العصبة أولى القوة ، ورصعت تضاعيفها بالمصطلحات الأجنبية وأعلام الفرنجة على نحو ظاهر الدعوى ، وإن من أصحابها ـ وقد عشت بين ظهرانيهم ربع قرن أو يزيد ـ من إذا سيم قراءة جملة واحدة بلغة أجنبية سيارة فى كتاب مدرسى لأعْنَتَه ذلك ؛ فما بالك بمصنفات اللسانيات المعاصرة ؛ وما أدراك ما هيه ؟

أنَّ لعلوم اللسان والنقد ، والحال على ما ذكرنا ، أن تجتمع وتتآزر على تحقيق المراد من دراسة النص الأدبى وهو أخطر مظاهر التشكيل اللغوى وأبعدها أثرا ؟ لقد أصبح النص الأدبى كجالس فيما بين كرسيين ، على مايقول الفرنسيون فى أمثالهم ، بين تفريط قوم وجراة آخرين . وما أحسب الأمر مستقيما على الجادة إلا إذا أخذنا أنفسنا وطلابنا بالجد الصارم ، وآمنا ـ لسانيين ونقادا ـ بأن قيمة كل امرىء منا ما يحسنه ؛ فكلانا واقف على ثغرة من ثغور العربية هو عنها مسئول . ونحسب أن الإبداع الأدبى فى العربية هو أجلّ من أن نضيعه بين جمود يضع الباحث به أصابعه فى آذانه ، ويستغشى ثيابه ، وحداثة زائفة تقوم على أخلاط من المعارف لا يمسكها قوام ، وعجلة ظاهرة فى اعتساف الأمور ؛ إذ ماذا يبقى لنا ـ نحن الذين شرفنا الله بالانتساب إلى العلم ـ إذا أحبينا العاجلة ، وآثرنا ما يذهب جفاء من الزبد على ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ؟